الدرس الرابع

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، اللَّهمَّ صلِّ وسلم وبارك، على عبدك ورسولك محمدٍ، وعلى آله وصحابته أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

- كان الحديث توقَّف بنا في الدرس الماضي عند هجرة الحبشة، التي ابتدأها المؤلف -رحمه الله- بقوله: "فلما اشتد البلاءُ أَذِنَ الله -سبحانه وتعالى- في الهجرة إلى أرض الحبشة".
- هذا الاشتداد في الأذى جاء بعد أن قويت شوكة المسلمين قليلًا، بدأ الدخول في دين الله تعالى يزداد شيئًا فشيئًا، لكن أعداء الله -جلَّ وعلَا- لا يسُرهم أبدًا أن يَتمدد الإسلام، وأن تتسع رقعته، وأيضًا مِن رحمة الله -سبحانه وتعالى- أنَّ الشّدة إذا جاءت أعقبها فرجٌ، فكان مِنَ الفرج الذي قدَّره الله -جلَّ وعلَا-، واختيار الله -سبحانه وتعالى- لهؤلاء الصحب الكرام، أن أذن لهم في الهجرة إلى أرض الحبشة.
- قال -رحمه الله-: "فلما اشتد البلاءُ، أَذِنَ الله -سبحانه وتعالى- في الهجرة إلى أرض الحبشة، وهي في غرب مكة بين البلدين، صحارى السودان، والبحر الآخذ من اليمن إلى القَلزم"
القلزم هو البحر الأحمر الآن.
- يقول -رحمه الله-: "فكان أول من خرج فارًّا بدينه إلى الحبشة، عثمان بن عفان -رضي الله عنه-"
فهذه إذن من فضائله.
- "ومعه زوجته رقية ابنةُ رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وتبعه الناس".
- قال -رحمه الله-: "وقيل"، وهذه تشير إلى ماذا؟ إلى أنه -رحمه الله- كأنه يقول: إنَّ هذا القول ليس بقويٍّ، وأنَّ الأقوى هو الأول.
- قال -رحمه الله-: "وقيل: إنَّ أوَّل من هاجر إلى أرض الحبشة أبو حاطب بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ود بن نصر بن مالك، ثم خرج يعني بعد ذلك، جعفر بن أبي طالب، وجماعاتٌ -رضي الله عنهم وأرضاهم-، وكانوا قريبًا من ثمانين رجلًا".
- هنا الآن في الخريطة يخرجها المخرج لنا، تبين موقع الحبشة من الجزيرة العربية في ذلك الوقت، تلاحظون الآن أنَّ مكة في موقعها المعروف لديكم جميعًا، انتقل الصحابة -رضي الله عنهم- كما ترون هذا اللون الأخضر، انتقلوا من مكة إلى هذه المنطقة عن طريق البحر، ولكم أن تتصوروا المشقة العظيمة التي لحقت الصَّحب الكرام في هذه الهجرة.

- المشقة جاءتهم من جهتين:
  - مِن مُفارقة بلدانهم رغمًا عنهم، ولاشك أنَّ هذا نوعٌ من التعب النفسي، لكنه يتحول إلى لذةٍ إذا كان في ذات الله -جلّ وعلَا-، وإخراج الإنسان من بلده قهرًا أحد أنواع العقوبة، قال الله -جلَّ وعلَا-: ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [الحج: 40]، وقال الله -جلَّ وعلَا- في سورة النساء ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ [النساء: 66]، فقرن الله الخروج مِنَ البلد بقتل النفس، إذن هذا الأمر صعبٌ، لكنه إذا كان في ذات الله، يكون أهون على النفس، هذا التعب الأول.
  - التعب الثاني: هو أنَّ هؤلاء الصحب الكرام -رضي الله عنهم- ليس لهم خبرةٌ في البحار، ولك أن تتصور الخوض في البحر مهولٌ جدًّا، يعني الآن في هذا العصر الأخطار فيه قائمةٌ، فكيف بذلك الوقت؟ مع التواضع الشديد في بناء السفن ونحو ذلك، وأخبار الذين ركبوا في البحار يُدركون شيئًا من هذا، ولكن هذا كله مما يضاعف الله -جلَّ وعلَا- به أجورَ الصحابة -رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم-.
- يقول: **"فكانوا نيفًا وثمانين رجلًا"**.
- ثم قال: **"وذكر"** هذا نموذجٌ الآن من تحقيقات الحافظ ابن كثير لما ذكرنا أن من مزايا الكتاب أنه ينتقد بعض الأخبار التي تُذكر في السير، فذكر هنا أن ابن إسحاق ذكر أن من أول من هاجر إلى أرض الحبشة أبو موسى الأشعري عبد الله بن قيس، يقول ابن كثير: "وما أدري ما حمله على هذا" يعني استغرب كيف عبد الله بن قيس، ما الذي أتى به هنا؟ لماذا؟ يقول: **"فإن هذا أمرٌ ظاهرٌ لا يخفى على من دونه في هذا الشأن"** ، وقد أنكر عليه الواقدي وغيره من أهل المغازي، وقالوا: إن أبا موسى إنما هاجر من اليمن إلى الحبشة، ولم يهاجر من مكة إلى الحبشة؛ لأن أبا موسى لما جاء إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- جاء إليه وهو في المدينة، لم يأت إليه وهو في مكة وهذا ثابتٌ في الصحيح، فاستغرب ابن كثير على -حافظٍ في السير، وإمامٍ في السير-، كابن إسحاق، كيف غاب عنه؟، ولكن في هذا درسٌ وعبرةٌ لطالب العلم، أنه مهما بلغ الإنسان في العلم، فإنه لا يَسلم من الوهم، ولذلك يقول: **"كما جاء مصرحًا به في الصحيح من روايته"** يعني من رواية أبي موسى.
- **"فانحاز المهاجرون إلى مملكة أصحمة النجاشي، فآواهم وأكرمهم، فكانوا عنده آمنين"**.
- وفي هذا درسٌ آخر، وهو أن الله -جلَّ وعلَا- يؤيد هذا الدين برجلٍ فاجرٍ، أو برجلٍ كافرٍ، ونحن نقول كافرٌ باعتبار واقع النجاشي في ذلك الوقت، وإلا هو قد ثبت أنه أسلم بعد، وصلى عليه النبي -صلى الله عليه وسلم-.
- ولهذا من الحكمة في السياسة أن لا تَستعدي أو تُكثر الأعداء ضدك، يعني: تظهر أنك قويٌّ، وأنك لا تبالي بأحدٍ، وتجمع من حولك من الأعداء، خصوصًا ممن حولك مِن الدول، فمن الحكمة هذا في جانب السياسة إن استطعت أن تَكسبهم فافعل، وإن لم تستطع، فحيّدهم كما يُقال، هذا على مستوى الدول، وعلى مستوى الأفراد، فليس من الحكمة أن يستكثر الإنسان من الأعداء، بل يحاول أن يكسب الناس ما استطاع، فإن لم يستطع فإنه يُحيّدهم، ما معنى يحيّدهم؟ يعني يحاول ألا يواجههم، قدر الإمكان، وألا يلجأ إلى المواجهة إلا في أضيق الظروف؛ لأن الإنسان إذا استنزف جهوده الفكرية، جهوده المالية، جهوده الاقتصادية، في الإنفاق على العداوات الشخصية، أو على العداوات الدولية، ستضعف دولته، وسيُنهَك سلطانه، وغير ذلك من الأضرار، ولهذا كان النبي -عليه الصلاة والسلام- لما قدِم من المدينة، وكانت الدولة الإسلامية لم تتأسس بعد، أو تأسست بتأسيس ليس بالقوي، كان قد

صالح اليهود؛ لأن لهم شوكةً في ذلك الوقت، ثم لما قويت الدولة قليلًا زارعهم على أرض خيبر، على نصف ما يخرج منها، ثم أبقاهم فيها حيث شاءوا، ثم أجلاهم عمر بعد ذلك لما قويت الدولة إلى تَيماء وإلى تبوك إلى غير ذلك.

- إذن من الحكمة في الإنسان في الدعوة، نحن الآن نتحدث على مستوى الأفراد، بعض الدعاة أحيانًا قد يكون في بيئةٍ مستضعفةٍ، أو يريد أن ينتقل إلى بيئةٍ يجد فيها النصرة، ويجد فيها على الأقل قدرةً أو فرصةً لإظهار دينه، وللدعوة إليه، وهذا يدلك على أنه من الحماقات المتراكمة عند بعض الناس، الذين للأسف الشديد يتحدثون باسم الإسلام، أو يفجرون باسم الإسلام، أو يقتلون باسم الإسلام، أنَّ هؤلاء يأتون إلى دولٍ قد آوت ملايين المسلمين، في أوروبا مثلًا، فيأتي أحد الحمقى سواءً بنفسه أو تحركه استخباراتٌ معاديةٌ، فيأتي يفجّر، أو يقتل، ويأتي إلى أماكن رقصٍ، أو طربٍ، هؤلاء كفارٌ، يعني ليس بعد الكفر ذنبٌ، ثم يُحدث تشويشًا، فتنقلب الدولة بأكملها على هؤلاء الذين ينتمي إليهم هذا الشخص، وهم المسلمون، فيُضيق على ملايين من المسلمين بسبب تصرف أرعن، أو أحمق من واحدٍ أو اثنين، وهذا مشاهد لا يحتاج إلى تمثيل.
- قال -رحمه الله-: **"فكانوا عنده آمنين"**، يقول: **"وزعيمهم جعفر بن أبي طالب -رضي الله عنه-"** يقول: **"فلما علمت قريش بذلك، بعثت في إثرهم عبد الله بن أبي ربيعة، وعمرو بن العاص، بهدايا وتحفٍ"** إلى آخر الكلام.
- الفكرة أن هؤلاء مبعوثون من قريش، مِن أجل أن يطلبوا من أصحمة النجاشي أن يُضيّق على المسلمين، لكن هذه لم تُفلح، وصدق في النجاشي قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: **«إنه ملكٌ لا يُظلم عند أحدٌ»**، وهذه من المزايا التي يتميز بها الحاكم، وكل مَن تولى أمرًا، أن يكون عادلًا، فإنَّ الله تعالى كما قال ابن تيمية: "يقيم الدولة العادلة، ولو كانت كافرةً، ويخذل الدولة الظالمة، ولو كانت مسلمةً"؛ لأن هذه سننٌ إلهيةٌ، تمضي في الأكوان والمجتمعات والأمم، فإذا اجتمع مع العدل إسلامٌ، كانت نورًا على نورٍ.
- هؤلاء ذهبوا، وهذه فيها فائدةٌ أو درسٌ: وهي أن الكفار لا ينفكون أبدًا عن أذية المسلمين، قال الله -جلَّ وعلَا-: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾ [آل عمران: 186]، هذا سماعٌ، فكيف بالمطاردة البدنية.
- ومن العجائب: أن هذين الرجلين، أسلما بعد، **وفي هذا فائدةٌ:**
  - ✓ العبرة ليست بنقص البدايات، ولكن بكمال النهايات.
  - ✓ وأيضًا لا تحقرن إنسانًا، وتقول: هذا كافرٌ، وهذا داعيةٌ إلى الكفر، وهذا داعيةٌ إلى الضلال، لا تيأس من دعوته، قد مع الدعوة مع حسن التعامل يستجيب ويكون من أعظم أنصار الدعوة، يعني تصور عمرو بن العاص هذا الذي ذهب إلى أفريقيا في تلك الفترة، ذهب محاربًا للإسلام، هو الذي فتح الله على يديه مصر، وأمَّره عمر -رضي الله عنه- على مصر فترةً من الزمن.
- فيه أيضًا يقول -رحمه الله-: **"فَوَشوا إليه" يعني نقلوا إليه كلمةً** إنَّ هؤلاء يقولون في عيسى قولًا عظيمًا" لاحظ الدقة في ما الذي قالوه، ما قالوا إن هؤلاء مثلًا صغارٌ، أو خرجوا عن الطاعة، أو شيءٌ من هذا القبيل، أتوا إلى الملك هذا من الباب الذي يكره أن يُؤتى منه، وهو أن تطعن في دينه، مع أن هؤلاء كانوا في تلك الفترة في حماقةٍ؛ لأنهم لا يدرون أن دين الأنبياء واحدٌ، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: **«الأنبياء أبناء عَلاتٍ، أمهاتهم شتى، ودينهم واحدٌ»**، يعني: هذا عيسى للنصرانية، وموسى اليهودية، ونوح، كلٌ له شريعةٌ، لكن في النهاية، كما قال الله -جلَّ وعلَا-: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: 19]، التوحيد مشتركون فيه إلى آخره، لكنه مِن عَقله لم

يقبل الوشاية، ماذا صنع؟ دعا أولئك، فأُحضر المسلمون إلى مجلسه، وفي هذه فائدةٌ: أنَّ الإنسان في الدعوة قد تسمع وشاياتٍ، قد تسمع نقولاتٍ وأخبارًا، فتثبت، ولا تصدِّق كل ما يُنقل إليك.

- يقول: "وزعيمهم جعفر بن أبي طالب -رضي الله عنه-. فقال: ما يقول هؤلاء، إنكم تقولون في عيسى". فكان من فضل الله ولطفه على هؤلاء المسلمين، أنهم لم يجيبوه بأكثر مما قرؤوا عليه القرآن الكريم، يقول ابن كثير: "فقرأ عليه جعفر سورة كهيعص" يقصد صدرًا منها وليس كلها، "فلما فرغ، أخذ النجاشي عودًا من الأرض، فقال: ما زاد هذا على ما في التوراة ولا هذا العود"، أخذ ينكت عودًا في الأرض، ثم قال: "اذهبوا فأنتم سيومٌ بأرضي" يعني آمنون، "من سبَّكم غرِم، وقال لعمرو وعبد الله، والله لو أعطيتموني دَبرًا من ذهب" يعني جبلًا من ذهب "ما سلمتهم إليكم، ثم أمر فردت عليهم هداياهما، ورجعا مقبوحيْن بشر خيبةٍ وأسوئها".
- وفي هذا فائدةٌ للداعية، في بعض البيئات، كالنصرانية واليهودية وغيرها، قد يكون جوابك لا بحجاجك العقلي والشخصي، بل يكون بأن تقول: اسمع مني، ماذا سيسمع؟ اقرأ عليه شيئًا من القرآن، قال الله -جلَّ وعلَا- مُبيِّنًا شيئًا من مهمة النبي -صلى الله عليه وسلم- في الدعوة، أو من مهام النبي -صلى الله عليه وسلم-: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ﴾ مكة ﴿الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ﴾ [النمل: 91، 92]، وهذا أمرٌ ليس بالسهل، أحيانًا قد لا تملك حُججًا وبراهين، لكنك تعرف أن في هذه الآيات أو تلك ما يجيب على هذه الشبه، وبالفعل تحقق لجعفر ومن معه هذا المراد، والله -جلَّ وعلَا- قال لنبيه في سورة الفرقان: ﴿وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: 52]، فالجهاد بالقرآن، بحُججه العلمية، بحججه العقلية من أعظم أنواع الجهاد، لكن لا يوفَّق بهذا إلا العالمون.
- ولهذا أُوصي نفسي وإخواني، الذين يسمعون هذا الكلام، أن يُعنَوا بتدبر القرآن، وفهم معانيه، فإن التدبر فرعٌ عن فهم المعنى، والتدبر يقودك إلى فهم الحجج والبراهين التي تستطيع بها أن تُلقم هؤلاء حجرًا، ولهذا مثلًا في بعض الملاحدة، لما بدأ يتكلم في قضايا، وقال: ما الوحي هذا؟ كيف جبريل أو جسمٌ نورانيٌّ يقصد جبريل ينزل على بشرٍ، ثم يلقي إليه كلامًا، أنا ما استوعبتُ هذا، بدأ ينكر هذا الكلام، ليتوصل بذلك لإنكار الشرائع، فقال له رجلٌ: إن كنت لا توقن إلا بشيءٍ تراه، فأسألك بالله ما الفرق بين جسدك الآن الحي، وجسدِ إنسانٍ ميّتٍ؟ قال: الفرق الروح، قال: أين هذه الروح؟ حدثني عنها، فبُهت، أنت عاقلٌ؟ قال: نعم، عاقلٌ، قال: أين عقلك الذي تحدثنا عنه؟ شيءٌ محسوسٌ؟ لا، إذن ليس كل شيءٍ له أثرٌ حقيقيٌّ، يُرى أن يُشعر، ثمَّة أشياء كما يُقال ما وراء المادة، أمورٌ غيبيةٌ، امتحن بها الناس ليُنظر من الذي يسلِّم، ومن الذي لا يسلِّم.
- ثم يقول -رحمه الله- بعد هذا: "ثم أسلم حمزة"، رجع الآن الحديث إلى مكة، وللحديث عن مأساةٍ جديدةٍ مرَّ بها المسلمون في مكة، وهي مأساة المقاطعة الاقتصادية.
- لما أسلم حمزة، وقصته مشهورةٌ، لم يذكرها ابن كثير، لذا لا نريد أن نستطرد، لكن أسلم حمزة، وكان إسلامه دفعةً قويةً للمسلمين؛ لأن حمزة -رضي الله عنه- هو العم الثاني من أعمام النبي -صلى الله عليه وسلم- الذين أسلموا، ومر معنا في أول الدروس أنه أدرك من أعمامه الذكور أربعةً، آمن به اثنان وكفر به اثنان، آمن حمزة والعباس، وكفر أبو لهب وأبو طالب، مع أن أبا طالب له مقامٌ في النصرة معروفٌ.
- يقول: "وفشا الإسلام" انتشر، هذه مرحلةٌ جديدةٌ.

- "فلما رأت قريش ذلك ساءها، وأجمعوا على أن يتعاقدوا على بني هاشم وبني المطلب ابنيْ عبد مناف". على ماذا؟
- بنود إن صحت العبارة المقاطعة الاقتصادية، أو المقاطعة عمومًا، ترتكز على أربعة أمورٍ:
  - ☑ **الأول:** ألا يبايعوهم.
  - ☑ **الثاني:** ألا يناكحوهم.
  - ☑ **الثالث:** ألا يكلموهم، حتى الهجرة في الكلام.
  - ☑ **الرابع:** ألا يجالسوهم، وهذا يدلك على ماذا؟ إلى متى؟ قال: حتى يُسلموا إليهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فأبوا، وفي هذا لاحظ بنو عبد مناف، وبنو المطلب هنا ليسوا كلهم جميعًا مسلمين، لكن في تلك الفترة كانت الحمية العصبية والقبلية كان لها أثرٌ في نصرة الدعوة، وسبق أن ذكرنا هذا في قصة أبي طالب، وكيف أن الإنسان الداعية أحيانًا قد يكون ابن قبيلةٍ مشهورةٍ، ويكون هناك أناسٌ على غير منهجهم، لكن ينتفع بهم في النصرة، في الحماية، في الذب عن الدعوة، كما قال الله عن شعيب: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: 91].
- فهؤلاء انحازوا جميعًا إلى الشِّعب، مسلمهم وكافرهم، إلا أبا لهب قبَّحه الله، كما سيذكر، يقول: "وكتبوا بذلك صحيفةً، وعلَّقوها في سقف الكعبة، ويُقال إن الذي كتبها منصور بن عكرمة بن فلانٍ، ويقال فلانٌ لا يهمنا، المهم أنه دعا عليه النبي -صلى الله عليه وسلم- فشُلَّت يده".
- هنا نقطةٌ، وهي تبين لنا أن هؤلاء لما انحاز إلى الشِّعب بنو هاشم، وبنو المطلب، مؤمنهم وكافرهم، إلا أبا لهب، وهذا من خذلان الله له، وبقوا على تلك الحال يا إخوان ثلاث سنواتٍ، تصوروا، مقاطعةٌ اقتصاديةٌ اجتماعيةٌ صعبةٌ، لا يثبت لها كل أحدٍ، لكن من رحمة الله -جلَّ وعلَا- بالداعية، أن يكون معه أناسٌ يواسونه، كما قالت الخنساء:

ولولا كثرة الباكين حولي	على إخوانهم لقتلت نفسي
وما يبكون مثل أخي ولكن	أسلي النفس عنهم بالتَّأسي

- إذن أحيانًا مشاركة غيرك في المصيبة، تخفف بلا شكٍّ، وعموم الأعباء والتكاليف إذا كانت جماعيةً -سبحان الله- تكون أخف على الإنسان، صلاة الجماعة يخف على الإنسان شأنها، بخلاف قيام الليل، كونك تقرأ أو تستمع، تصلي صلاة التراويح، غير ما إذا صليتها في البيت وحدك، هناك مع جماعةٍ، فكذلك المصائب.
- يقول ابن كثير: "وهنالك عمل أبو طالب قصيدته المشهورة. هو ذكر طرف البيت، لكن أذكر بعض الأبيات منها؛ لتعبِّر عن الحَنَق العظيم الذي امتلأت به قلوب بني هاشم على بني عمهم، يقول:

جزا الله عنَّا عبدَ شمسٍ ونوفلا	عقوبة شرٍّ عاجلٍ غير أجل
بميزان قسطٍ لا يغيض شعيرةً	له شاهدٌ في نفسه حق عادل
ونحن الصميم من ذآبة هاشم	وآل قصيٍّ في الخطوب الأوائل
لقد علموا أن ابننا لا مُكذَّبٌ لديهم	ولا يُعنى بقول الأباطل

- "لقد علموا أن ابننا" يعني النبي -عليه الصلاة والسلام-.

- هنا أوضح للإخوة المشاهدين الشجرة، شجرة قريش، لنعرف من هم بنو هاشم، وبنو نوفل، باختصارٍ شديدٍ فقط أوضِّح، لاحظوا هنا بنو عبد مناف الذين اتفقوا، هؤلاء الذين عليهم المؤشر الآن، الذي هو والد هاشم، الجد الثاني للنبي -عليه الصلاة والسلام-، هذا عبد منافٍ له أربعة أبناءٍ، الأول: عبد شمس، والثاني: المطلب، والثالث: نوفل، والرابع: هاشم، الذي هو جد النبي -صلى الله عليه وسلم- الثاني. يعني النبي -عليه الصلاة والسلام- اسمه: محمد، بن عبد الله، بن هاشم، بن عبد مناف، هذا عبد مناف له أربعة أبناءٍ، هاشم، الذي هو جد النبي -صلى الله عليه وسلم- الثاني، وعبد شمس، والمطلب، ونوفل.
- من الذين حُوصروا ؟ الذين حُوصروا: المطلب، وهاشم، بينما عبد شمس ونوفل هؤلاء انحازوا مع بقية قريش، مع بقية بطون قريش، مع مقتضى النصرة يقتضي أن يكونوا معهم، ولهذه النصرة أثرٌ في حكمٍ فقهيٍّ، ما هو؟ عند كثيرٍ من أهل العلم، الزكاة إنما تحرم على بني هاشم، وبني المطلب فقط، أما بنو نوفل، وبنو عبد شمس، فليسوا ممن تحرم عليهم الزكاة، مع أنهم أبناء رجلٍ واحدٍ، وهو عبد مناف، والسبب: أن النبي -عليه الصلاة والسلام- أول هذه النصرة، وقوله -عليه الصلاة والسلام-: «نحن وبنو المطلب لم نفترق في جاهليةٍ ولا في إسلامٍ» ، فكان من آثار هذه النصرة في ما بعد أن الزكاة بعد إنما تحرم على بني المطلب، وعلى بني هاشم، ومن العلماء من يحصرها في بني هاشم فقط، الذين هم يلتقون مع النبي -صلى الله عليه وسلم- في جده الثاني، وليس هذا مقصود البحث الفقهي، لكني أود أن أشير إلى أثر هذه المسألة في البحث الفقهي في رأي جمعٍ من أهل العلم.
- ثم يقول -رحمه الله-: "سعى في نقض تلك الصحيفة أقوامٌ من قريش"، ما أعجبهم هذا الأمر، وجدوا أن فيه ظلمًا، يقول: "فكان القائم في ذلك هشام بن عمرو بن ربيعة بن الحارث بن حبيب" إلى آخره، "مشى في ذلك إلى مطعم بن عدي" ، وهذا أحد كبار قريش، وليس من بني عبد مناف، لكنه رجلٌ عاقلٌ منصفٌ شجاعٌ كريمٌ، جاءوا إليه، يعني ما معقول هؤلاء أبناء عمنا، ونحاصرهم هذا الحصار، حتى إنه سُمِعَ أصوات الأطفال من الجوع، حتى إن بهائمهم كادت تموت، بل بعضها مات، بدأ بعضهم يأكل ورق الشجر.
- فمشى إلى هؤلاء، فأجابوه إلى ذلك، قالوا: هيا سنذهب إلى الكعبة، وننقض هذه الصحيفة، فأخبر النبي -عليه الصلاة والسلام- قومه أن الله أرسل على هذه الصحيفة التي عُلِّقت أرضَة، وهي نوعٌ من النمل، وأظنه النمل الأبيض، فأكلت كل ما في الصحيفة، إلا ما فيه ذكر الله -جلَّ وعلَا-، فلما أرادوا أن ينقضوا الصحيفة، وجدوا ما فيه شيءٌ، فرجع بنو هاشم، وبنو المطلب إلى مكة، وحصل الصلح، برغمٍ من أبي جهل قبَّحه الله.
- هنا لما رجع النبي -عليه الصلاة والسلام- ببني المطلب، وبني هاشم إلى مكة، وصلت الأخبار إلى أهل الحبشة، وظنوا أن قريشًا أسلمت بسبب فك الحصار، ولم يكن شيءٌ من ذلك، لكن هكذا سرت الأخبار، ولا يبعد أن يكون بعض القرشيين أثار هذه الشائعة، من أجل استقطاب أكبر عددٍ ممكن من هؤلاء ليسوموهم سوء العذاب.
- يقول ابن كثير: "فقدِم مكة منهم جماعةٌ، فوجدوا البلاء والشدة كما كانت"، فاستمروا بمكة إلى أن هاجروا إلى المدينة، إلا" استثنى المؤلف -رحمه الله- أربعة أشخاصٍ، فالسكران بن عمرو -رضي الله عنه- زوج سودة بنت زمعة، التي تزوجها النبي -صلى الله عليه وسلم- بعده، فإنه مات بعد مقدمه من الحبشة بمكة قبل الهجرة إلى المدينة، هنا خطبها النبي -عليه الصلاة والسلام-، فصارت أمًّا للمؤمنين، ثم سلمة بن هشام، وعيَّاش بن أبي ربيعة، وذلك أنهما احتبسا في مكة مستضعفين، والرابع: عبد الله بن مخرم بن عبد العزى، فإنه حُبس فلما كان يوم بدر هرب من المشركين إلى المسلمين. هؤلاء استثنوا من الهجرة لهذه الأسباب الأربعة.

- يقول ابن كثير -رحمه الله-: "فلما نقضت الصحيفة، وافق موت خديجة -رضي الله عنها- وموت أبي طالب، وكان بينهما ثلاثة أيامٍ". انظر كيف البلاء يتتابع على نبينا -عليه الصلاة والسلام-، وقد صدق بأبي وأمي حينما قال: «أشد الناس بلاءً الأنبياء، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، يُبتلى المرء على قدر دينه».
- وقوله هنا: "بينهما ثلاثة أيامٍ" هو اختيار منه -رحمه الله- لقول أكثر أهل العلم في مدة الوفاة، وإلا بعض العلماء يقول: بينهما ثلاثة وخمسين ليلةً، ولكن أكثر المحققين على أن بينهما ثلاثة أيامٍ، وهذا لاشك أنه بلاءٌ، أن يموت عمك، ثم تموت زوجتك، التي كانت مناصرةً لك في الدعوة، كنت تجد فيها الحضن، كنت تجد فيها العبارات الطيبة التي تهدئ من روعك، كنت تجد فيها السكن والأنس من عناء الدعوة، هذه لاشك أنها مصيبةٌ عظيمةٌ، يعرفها من ذاقها من الدعاة، الذين كانوا يجدون في زوجاتهم حصنًا حصينًا وملجئًا بعد الله -سبحانه وتعالى-.
- قال ابن كثير: "فاشتد البلاء على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من سفهاء قومه، وأقدموا عليه"، يعني بالأذى، ماذا صنع النبي -صلى الله عليه وسلم-؟ وهنا درس فانتبهوا له، فخرج الرسول -صلى الله عليه وسلم- إلى الطائف، ما هو الدرس الذي يمكن أن يُستفاد من هذا؟ يعني لما ضويق في مكة، ووجد أن الأبواب مغلقةٌ في تلك الفترة، خروجه إلى الطائف ماذا يعني؟ أن الداعية لا يقف في مكانٍ واحدٍ، إذا وجد الأبواب أُغلقت في مكانٍ، أو في مشروعٍ، أو في جهةٍ معينةٍ، فإنه يجتهد، ويبحث عن موضعٍ آخر، ليبلّغ فيه دين الله -سبحانه وتعالى-، ولهذا يقول هنا: "فخرج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى الطائف، لكي يؤووه وينصروه على قومه، ويمنعوه منهم، ودعاهم إلى الله -جلَّ وعلَا-، فلم يجيبوه إلى شيءٍ من الذي طلب" بل ماذا؟ يقول -رحمه الله-: "وآذوه أذىً عظيمًا، لم ينل قومه منه أكثر مما نالوه منه، فرجع عنهم، ودخل مكة في جوار المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف".
- هذا المقطع يصوّره بشكلٍ أكثر أن النبي -عليه الصلاة والسلام- كما في الصحيحين، سألت عائشة -رضي الله عنها-، فقالت: يا رسول الله، هل مر بك يومٌ أشد عليك من يوم أحدٍ؟ قال: «لقد لقيتُ من قومك ما لقيتُ، وأشد ما لقيتُ من ابن عبد يا ليل» ، الذي هو كنانة «ابن عبد يا ليل، ابن عبد كلاب، عند العقبة» ، والأقرب أن هذه العقبة ليست عقبة مِنى، وإنما عقبةٌ من عقبات الطائف؛ لأنه كان سيدًا في قومه، وهذا الرجل -سبحان الله- جاء في عام الوفود وأسلم، لكنه في تلك المرة كان من أعداء الله ورسوله، فسمع منه من الأذى ما سمع.
- يقول: «فخرجت مهمومًا، فلم أستفق إلا وأنا في قرن الثعالب» ، قرن الثعالب بينها وبين الطائف ثلاثين كيلوا، تصور يمشي النبي -عليه الصلاة والسلام-، وهو لا يدري من الهم الذي ركب -عليه الصلاة والسلام- والأذى الذي لحقه، وكان صبيانهم، صبيان أهل الطائف يرمونه بالحجارة -عليه الصلاة والسلام-، حتى أدموا عقبيه الشريفتين، بأبي هو وأمي ونفسي وما أملك، صلوات الله وسلامه عليه.
- فلحقه من الهم ما لحقه، فلما وصل إلى قرن الثعالب أفاق، ثم جاءه كما في الصحيح ملك الجبال بعد، فقال: "لقد سمع الله -جلَّ وعلَا- مقالة قومك لك، وإني مَلك الجبال، فإن شئت أطبقت عليهم الأخشبين". الأخشب هو الجبل العظيم، ومكة تعرفون أنها بين جبلين عظيمين، جبل أبي قبيس، والجبل الآخر. فقال: «لا، إني أستأني بهم»، يعني أنتظر، «لعل الله أن يُخرج من أصلابهم من يُعبد الله»، الله أكبر! وصدق -عليه الصلاة والسلام-.

- الداعية أيها الإخوة، لا ينتصر لنفسه، إنما همه أن يُخرج الناس من الظلمات إلى النور، وإلا لاحظوا المَلَك جاء إليه بأمر الله -جلَّ وعلَا-، ولو قال: نعم، أطبق عليهم الأخشبين، هؤلاء آذوني، وآذوا جماعتي، وآذوا كذا، وأنا ابتليت بموت زوجتي، وموت عمي، قلَّ الناصر، وقلَّ المعين، ومع ذلك لم يقل -عليه الصلاة والسلام- شيئًا، وفي هذا جاءت الرواية التي أخرجها ابن إسحاق بسند حسن: «اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي، وَقِلَّةَ حِيلَتِي، وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ! أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعَفِينَ وَأَنْتَ رَبِّي، إِلَى مَنْ تَكِلُنِي؟ إِلَى بَعِيدٍ يَتَجَهَّمُنِي؟ أَمْ إِلَى عَدُوٍّ مَلَّكْتَهُ أَمْرِي؟ إِنْ لَمْ يَكُنْ بِك عَلَيَّ غَضَبٌ فَلَا أُبَالِي، وَلَكِنَّ عَافِيَتَك هِيَ أَوْسَعُ لِي، أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِك الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنْ أَنْ تُنْزِلَ بِي غَضَبَك، أَوْ يَحِلَّ عَلَيَّ سُخْطُك، لَك الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إلَّا بِك».
- في كلماتٍ عظيمةٍ، وابتهالاتٍ مليئةٍ بالثناء على الله -سبحانه وتعالى-، ومليئةٍ باللجوء إلى الله -جلَّ وعلَا-، وسؤاله التوفيق والتسديد.
- ثم يأتيه ملك الجبال فيقول له ما قال في الحديث السابق، وهكذا الداعية لا ينتصر لنفسه، ولو كان الإنسان يقلب الدعوة إلى تصفية حساباتٍ شخصيةٍ، ستفسد دعوته، وستبدأ همومه صغيرةً في مربعٍ صغيرٍ، يخاصم هذا، ويغاضب هذا، ثم يتوقف، أما الذي هَمُّه معلَّقٌ برضا الله -سبحانه وتعالى-، وهمُّه أن يستجيب الناس لأمر الله -سبحانه وتعالى- وإن أوذي هو في ذات الله، فإنه لا يتوقف، بل يصفح عن من أخطأ عليه، ويعفو عن من ظلمه، كما فعل -عليه الصلاة والسلام- في مكة، حينما فتحها، ودخلها مؤزَّرًا منصورًا، فيوضَع صناديد الكفر كلهم تحت قدميه الشريفتين -صلى الله عليه وسلم-، فيقول لهم بكل قوةٍ واقتدارٍ: «ما تظنون أني فاعلٌ بكم؟» ، فيقول: أخٌ كريمٌ وابن أخٍ كريمٍ، هنا الآن جاء أخٌ كريمٌ، وابن أخٍ كريمٍ، طيب قبل عشر سنواتٍ ماذا فعلتم بي وبأصحابي؟ أخرجتموني من مكة، لكنه الحلم النبوي، حلم الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، وعدم الانتصار للنفس، يقول: «أقول لكم كما قال يوسف لإخوته: لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين» ، قالها يوسف -عليه السلام-، وقالها محمدٌ -عليه الصلاة والسلام-، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ﴾ [الأنعام: 90].
- وأنا أؤكد على هذا المعنى، لأني أرى في الساحة نماذج من الدعاة -وفَّقهم الله- ابتلوا بلاءً عظيمًا بأناسٍ كثيرين، بتهمٍ، ببهتانٍ، بظلمٍ، بتصنيفاتٍ ظالمةٍ، بتنفيرٍ للناس، إلى درجة أنك تجد من الدعاة من تُقتطع له مقاطع من مقابلاتٍ، أو من لقاءاتٍ من أجل أن يُركَّب على هذا الداعية، أو ذلك العالم مقطعٌ يسيء إليه وإلى الدعوة، هذا جزءٌ من البهتان والظلم، ويقوِّلون ما لم يقولوا، وتجتزأ كلماتهم أحيانًا من سياقها، إلى غير ذلك من صور الأذى، فيُقال لهم: لستم وحدكم، ولكم في رسول الله- صلى الله عليه وسلم-أسوةٌ حسنةٌ.
- قال: "ودخل مكة في جوار المُطعم بن عدي". لماذا دخل في جوار المُطعم؟ العرب عندهم عادةٌ، وهو أن الإنسان إذا كان مطرودًا من جماعةٍ، أو من قبيلةٍ، أو من بلدٍ، فمن الأعراف عندهم أنه يُرسل إلى سيدٍ من سادات تلك البقعة، فيقول له: أنا أدخل في جوارك ، فدخل في جوار المُطعم بن عدي، فأرسل المُطعم بن عدي، مع أنه كان كافرًا في ذلك الوقت، لكن لاحظوا يجتمع هو والنبي -صلى الله عليه وسلم- في عبد مناف، يعني هذا جده نوفل، وهذا جده هاشم، جدهم الذي يجمعهم عبد مناف.
- فأرسل المُطعم أربعةً من أبنائه يستقبلون النبي -صلى الله عليه وسلم- عند مدخل مكة، وهو قادمٌ من الطائف، يحوطونه كما يُحاط العظماء، ولسان الحال: من ولدته أمه فليقترب من محمدٍ؛ لأنه دخل في جوار المُطعم بن

عدي، والعرب تُعظِّم الجوار، حتى ولو كان بينك وبين الطرف المُجار عداوةٌ، خلاص، مادام دخل في جوار رجلٍ، فإن الاعتداء عليه اعتداءٌ على مَن أجاره، ولهذا في حديث أم هانئ في الصحيح، لما أجارت ابن عمها، فقالت: يا رسول الله، لما أهدر النبي -صلى الله عليه وسلم- دماء أُناسٍ، وكان ممن قدِم أحد أبناء عمها، فقالت: يا رسول الله، إن فلانًا يزعم أنه قاتلٌ فلانًا، وقد أجرته، فقال: «قد أجرنا من أجرتِ يا أم هانئ» ، ولذلك العلماء نصُّوا على أن من دخل في جوار مسلمٍ، أو في ذمة مسلمٍ، وعهد مسلمٍ، ولو كان عبدًا، يُباع ويُشترى، فإنه لا يجوز خَفْرُ عهده وذمته.

- قال -رحمه الله-: "وجعل يدعو إلى الله -جلَّ وعلَا-، فأسلم الطُّفيل بن عمرو الدوسي"، الآن بدأت بعض الرءوس الكبيرة المؤثرة في الجزيرة العربية تُسلم وتتلقى الدعوة، وهذا فيه رسالةٌ إلى أن الإنسان بقدر ما يصبر يظفر، لا تقلق ولا تيأس، البشائر تأتي، لكنها ليست بالضرورة أن تأتي تباعًا، الطُّفيل بن عمرو الدوسي، هذا من قبيلة دوسٍ في جنوب المملكة، في مناطق الآن الباحة وما الباحة، وقريب من هذه المنطقة، قبائل زهران وما زهران، كلها تنتمي إلى هذه القبيلة.
- فأسلم، ودعا له رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن يجعل له آيةً، فجعل الله في وجهه نورًا، فقال: يا رسول الله، أخشى أن يقولوا: هذه مُثلةٌ، يعني عيبٌ، إما بَرَصٌ أو شيءٌ من هذا القبيل، أو خللٌ، فدعا له، فصار النور في صوته، فهو المعروف بذي النور، كما ترون.
- هنا الطُّفيل لم يكتف بإسلامه، بل قال: يقول ابن كثير: "ودعا الطُّفيل قومه إلى الله، فأسلم بعضهم".
- إذن عندنا درسٌ هنا مهمٌّ في هذه القطعة، ما هو؟ أن الإنسان يشتغل بالدعوة إلى الله -جلَّ وعلَا-، ما يقول والله أنا أسلمت والحمد لله وبركة، أو أنا اهتديت من الضلال إلى الهدى، أو من البدعة إلى السنة ويكفي، لا، بل يكون حمَّالة ورِدٍ، يكون ناقلًا للهدى، داعيًا إلى الله -جلَّ وعلَا-، والله -سبحانه وتعالى- يقول: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: 33].
- وفي الصحيح من حديث عبد الله بن عمرو -رضي الله عنه- قال: «بلِّغوا عنِّي ولو آيةً» ، والإنسان أقول بصراحةٍ، يعني بعض الناس أحيانًا يتصور أن الدعوة إلى الله -جلَّ وعلَا- لابد أن تكون حافظًا للقرآن، وحافظًا للصحيحين، وكذا وكذا، نحن نقول: لا يجوز أن يدعو الإنسان إلى شيءٍ معيَّنٍ إلا بعلمٍ في ذلك الذي يدعو إليه، ولا يلزم أن يكون عالمًا كبيرًا حتى يمارس الدعوة، وإلا لما مارس الدعوة إلا أعدادٌ قلائل، لكن المهم، لا تدعو إلى الله -جلَّ وعلَا- إلا بما تعلمه، فمثلًا لا يحتاج الإنسان إلى أن يُوصي غيره مثلًا بالصلاة، أن يكون عالمًا، الصلاة ركنٌ وفرضٌ متفق عليه، لا تحتاج إلى علمٍ واسعٍ حتى توصي الناس بغض البصر، أو بالكف عن أكل الحرام، أو ببر الوالدين، أو بترك الفواحش، أو غير ذلك من الأمور، المهم أن تحمل في قلبك همًّا للدعوة إلى الله -جلَّ وعلَا-، فإن عجزت عن الكلام، فليكن لسان حالك داعيةً إلى الله -جلَّ وعلَا-، بحُسن خُلقك، حُسن كلامك، تعاملك مع الوالدين، أدائك للشعائر، كفُّك عن الحرام.
- النقطة الثانية في خاتمة لقائنا هذا اليوم: أنه ذكر أن الطُّفيل بن عمرو أنه أقام في بلاده، فلما فتح الله على رسوله خيبر، وخيبر فتحت سنة سبعٍ للهجرة، على قول أكثر أهل العلم، في شهر المحرم، قال: قدِم بهم في نحو من ثمانين بيتًا.

- انظروا، هؤلاء الثمانون الآن لو أردت أن تُرجع قبائل زهران وغامد، وعددًا من القبائل التي عندنا في السعودية هنا، لأرجعت إليهم ملايين، كلهم يعود الفضل في إسلامهم بعد الله -جلَّ وعلَا- إلى هذا الرجل، لا تحقرنَّ شيئًا، قد يُسلم على يدك واحدٌ الآن، ثم يُسلم على يد هذا الرجل آلافٌ من الناس.
- **خلاصة ما في درسنا هذا اليوم ، نلخِّصها في الآتي:**

☑ أنه ما يضيق على الداعية شيءٌ، إلا ويجعل الله له مَخرجًا، لكن هذا المَخرج قد يكون زمانيًّا، قد يكون مكانيًّا، قد يكون نصرةً بشخصٍ، أو غيره، وهذا ظهر لنا من هجرة الحبشة، ومن نصرة ملكهم للمسلمين.

☑ أن أعداء الإسلام لا يألون جُهدًا في مضايقة المسلمين، وأذيتهم، ومحاربتهم، سواءً في أماكنهم، أو حتى يلاحقونهم في أماكن أخرى، ولئن كانوا سابقًا يُرسلون أشخاصًا، فإنهم اليوم يُرسلون رسائل عن طريق الفضاء، وعن طريق الإنترنت، وعن طريق وسائل الإعلام، من أجل إضلال المسلمين.

☑ أثر الدعوة في القرآن الكريم، كما في قصة جعفر بن أبي طالب -رضي الله عنه-، وأن الإنسان بقدر علمه بالقرآن، تكون دعوته أقوى وأسدُّ.

☑ أن النبي -عليه الصلاة والسلام- حوصر هو ومن معه من بني المطلب وبني هاشم، وبقوا ثلاث سنواتٍ، وهذا نوعٌ من أنواع الأذى الذي يلحق الدعاة، ويلحق المسلمين، وهو أيضًا في المقابل أسلوبٌ من أساليب الحصار والأذى، الذي يجتهد الكفار في إلحاقهم به، لكن يتبين لنا من مجريات السيرة أن العاقبة للمتقين ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه: 132] كما ذكر الله -سبحانه وتعالى- في أكثر من موضعٍ.

☑ أن من نِعم الله -جلَّ وعلَا- على الداعية: أن يهيئ الله له أسرةً، أو قبيلةً، أو جماعةً يقفون معه في السراء والضراء، وإن خالفوه في المنهج، وذكرنا أن من حكمة الداعية وعقله ألا يستكثر من الأعداء والخصوم، بل يجتهد في تجنبهم، في اكتسابهم قدر الإمكان، فإن لم يستطع، فإنه يحيِّدهم حتى لا ينشغل ولا يضيع وقته بالمهاترات والأخذ والرد.

☑ ثم أخيرًا تحدثنا عن قصة موت أبي طالب، وموت خديجة -رضي الله عنها-، وما لحق النبي -صلى الله عليه وسلم- من الأذى، وأخيرًا إلى ذهابه إلى الطائف -عليه الصلاة والسلام-، وما لقي من الأذى، وما أكرمه الله -سبحانه وتعالى- به من جِوار المُطعم بن عدي؛ لأنه كان صورةً من صور لُطف الله به.

☑ أشير فقط إشارةً مختصرةً وأختم بها، المُطعم بن عدي هذا مات كافرًا، لكن النبي -صلى الله عليه وسلم- لم ينس معروفه، وأراد أن يعبِّر عن شُكره، لما انتهت غزوة بدرٍ، وجاء هؤلاء الأسرى بين يديه، قال: **«لو كلَّمني المُطعم بن عدي في هؤلاء الأسرى، أن أُطلقهم له لأطلقتهم له»**، وكأنه يقول: ولا تنسوا الفضل بينكم، وأن من أحسن إليك، ولو كان كافرًا، فاجتهد في ردِّ الفضل هـ، أو الإشادة بموقفه، مع أن المُطعم مات كافرًا كما سبق، لكنه -صلى الله عليه وسلم- سيِّد ولد آدم في الخُلُق، وفي الوفاء، وفي حفظ العهد، وشُكر المُحسن.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

